الكميت بن زيد

شاعر العصر الروائى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٥ —

وقد روى لنا أبو الفرج الأصبهانى هذه الروايات الثلاث فى سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله ، وكان عليه أن يبين لنا وجه الصواب فيما تتعارض فيه من وجوه كثيرة ، ولكن أبا الفرج رحمه الله لم يكن يعنى فى الأكثر بنقد رواياته ، وإنما كان يهمه جمعها وسردها ، وعلى القارئ بعد هذا أن يحكم رأيه فيها

فالرواية الأولى تذكر أن سبب المنافرة بينهما قصيدته التى هجا فيها اليمن :

« ألا حُيِّيتِ عنَّا يا مَدينَا »

وقد اتفقت الرواية الثانية فى هذا معها على خلاف قليل بينهما ؛ أما الرواية الثالثة فتذكر أن سبب المنافرة بينهما شعر الكميت الذى حرض فيه هشاماً على خالد ، واتهمه فيه بأنه يريد خلعه . وتفيد هذه الرواية أن قصيدة الكميت التى هجا فيها اليمن كانت بعد سجنه لا قبله ، وأنه قالها رداً على الأعور الكلبي فى قصيدته التى رمى فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ، ويقول فيها :

« أسُودِينَا واحْمِرِينَا »

والرواية الأولى تذكر أن خالداً روى الهاشميات جارية واحدة والرواية الثانية تذكر أنه رواها ثلاثين جارية

والرواية الأولى تذكر أن أبان بن الوليد البجلى عامل واسط هو الذى سعى فى تهريب الكميت من السجن . وقد اتفقت الرواية الثانية فى هذا معها على خلاف قليل بينهما ، أما الرواية الثالثة فتذكر أن الذى سعى فى تهريبه عبد الرحمن بن عنبسة ابن سعيد

والرواية الأولى تفيد أن خالد بن عبد الله كان بالكوفة حينما أمر بسجن الكميت . وهكذا تفيد الرواية الثانية ، وإن كانت تفيد مع هذا أن خالداً قرأ على أبان بن الوليد كتاب هشام بقتل الكميت ، مع أن أبان بن الوليد كان فى ذلك الوقت بواسط . أما الرواية الثالثة فتذكر أن خالداً كان بواسط حينما أمر بسجن الكميت ، وأنه كتب بسجنه إلى واليه بالكوفة .

والرواية الأولى تذكر أن الكميت حينما أتى الشام مشت رجالات قريش فى أمره إلى عنبسة بن سعيد بن العاص ، فمشى فيه إلى مسلمة بن هشام فأمنه وأجاز أبوه هشام أمانه ؛ أما الرواية الثانية فتذكر أنه حينما أتى الشام قصد مسلمة بن عبد الملك ، وتذكر أن مسلمة لا عنبسة هو الذى مشى فيه إلى مسلمة بن هشام ، وأن مسلمة بن هشام أجاره فلم يجز أبوه جواره ، فاحتال له بقبر أخيه معاوية وأولاده ، وقد اتفقت الرواية الثالثة معها فى هذا على خلاف قليل بينهما

والرواية الأولى تذكر أن الكميت حينما عرض عليه الالتجاء إلى مسلمة بن هشام رضى به ، وقد اتفقت الرواية الثانية فى ذلك معها على خلاف قليل بينهما ، أما الرواية الثالثة فتذكر أنه لم يرض بالالتجاء إليه ، وأنه قال لمسلمة بن عبد الملك حينما عرض ذلك عليه : بئس الرأى ! أضيع دمى بين صبى وامرأة ، فهل غير هذا ؟

وهذه هى أهم وجوه الخلاف بين هذه الروايات المضطربة ، وقد يكفى هذا عند بعض الناس لدفعها كلها ، وعدم الوثوق بشىء منها ، ولكن ما قيمة البحث فى هذا العصر إذا كانت تقنعه هذه الغاية السهلة ، ويكفيه فى مثل هذا أن يقول إنى أشك فى هذه الرواية ، أو نحو هذا مما لا يكلف الباحث عناء ولا تعباً ؟ وإنما قيمة البحث الحديث فى تمحيصه أمثال هذه الروايات ، والاجتهاد فى ترجيح بعضها على بعض ، والوصول إلى الحقيقة بالتعمق فى البحث

ونحن نرجح أن الهاشميات نفسها هى التى كانت سبباً فى المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله ، لأنه لا يعقل أن يسكت خالد عن تبليغ أمرها إلى هشام بن عبد الملك ، وهى من الخطورة بهذا الشأن الذى أقام هشاماً وأقعده حينما بلغته . وقد كانت هذه العهود مملوءة بالوشايات والدسائس ، وكان ولاة بنى مروان معرضين بهذا للنكبات الشديدة التى كانت تصيبهم منهم ، ولا يخفى أمرها على من يعرف تاريخهم . ولا شك أن هذا كان يوجب على هؤلاء الولاة أن يحتاطوا لأنفسهم فى مثل هذه الأمور ، وألا

يسكتوا عن تبليغ مثل الهاشميات إلى ملوكهم إلى أن تبلغ من غيرهم ، ويتخذ بها أعداؤهم حجة عليهم عند ملوكهم

وقد يكون حديث الجاريات الحسان اللاتى رواهن خالد الهاشميات صحيحاً ، ويكون هذا منه تلطفاً فى الحيلة إلى تبليغها إلى هشام بن عبد الملك ، أو تخلصاً من تبعة تبليغها عند قوم الكميت وأشياعه ، لأن حال الولاة فى مثل هذه العهود المضطربة يكون مضطرباً بين إرضاء ملوكهم وإرضاء الرعية الناقمة عليهم . والظاهر كما يؤخذ من بعض هذه الروايات أن خالداً هو الذى سهل للكميت سبيل الهرب من سجنه ، وأنه كان يسلك بذلك كله موقفاً يخرجه من هذه الشكلة . وقد أرضى هشام بن عبد الملك وجعل لنفسه بعض العذر عند أنصار الكميت ، إذ كان يؤثر فى سياسته ملاينة الشيعة

أما المعارضة بين الكميت والأعور الكلبي فالظاهر أنها كانت بعد سجن الكميت ورضا هشام عنه ، كما يؤخذ من الرواية الثالثة لأنه كان يمدح فى قصيدته التى يعارضه فيها بني مروان ويفخر بهم عليه ، وقد كان قبل سجنه يطعن فيهم أشد طعن ، ويهجوهم فى هاشمياته أشد هجاء ، فلا يعقل أن يجمع فى هذا العهد بين هجائهم ومدحهم والافتخار بهم ، وهو لم يلجأ إلى مدحهم إلا مضطراً بعد ما لقى من السجن والحكم عليه بالقتل

ومما يؤيد هذا ما رواه أبو الفرج الأصبهانى قال : أخبرنى عمى وابن عمار ، قالا حدثنا يعقوب بن اسرائيل ، قال حدثنا إبراهيم بن عبد الله الطلحى عن محمد بن سلمة بن أرتبيل : أن سبب هجاء الكميت أهل اليمن أن شاعراً من أهل الشام يقال له حكيم بن عياش الكلبي كان يهجو على بن أبى طالب عليه السلام وبنى هاشم جميعاً ، وكان منقطعاً إلى بنى أمية ، فانتدب له الكميت فهجاه وسبه فأجابه ولج الهجاء بينهما ، وكان الكميت يخاف أن يفتضح فى شعره عن على عليه السلام لما وقع بينه وبين هشام ، وكان يظهر أن هجاءه إياه فى العصبية التى بين عدنان وقحطان ، فكان ولد إسماعيل بن الصباح بن الأشعث بن قيس وولد علقمة بن وائل الحضرمى يروون شعر الكلبي ، فهجا أهل اليمن جميعاً إلا هذين ، فإنه قال فى آل علقمة :

ولولا آلُ علقمةَ اجتدعْنَا بقايا من أنوفِ مُصَلَّمينَا

وقال فى إسماعيل :

فإنْ لإسماعيل حقًّا وإنَّنَا

له شاعبو الصدعِ القاربِ للشَّعْبِ

وكان لآل علقمة عنده يد ، لأن علقمة آواه ليلة خرج إلى الشام ، وأم إسماعيل من بنى أسد ، فكف عنهما لذلك

فهذه الرواية صريحة فى أن هذه المناقضة كانت بعد الذى وقع بين الكميت وهشام من عفوه عنه ، فلا يصح أن تكون هى السبب فى المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله ، وما جرته هذه المنافرة من السجن ثم العفو ، بل الظاهر أن بنى مروان بعد أن وصلوا إلى إسكات الكميت ، عن المضى فى هاشمياته أخذوا يعملون على إبطال أثرها فى النفوس ، فسلطوا الأعور الكلبي على مناقضتها ، وهجاء على عليه السلام وبنى هاشم جميعاً

وأما ماذكر فى الرواية الثالثة من أن سبب المنافرة بين الكميت وخالد شعر الكميت فى تحريض هشام على خالد ، واتهامه إياه بأنه يريد خلعه — فهو أقرب إلى الصحة مما ذكر فى الرواية الأولى والثانية ، ولعل الكميت فعل هذا سعياً فى إفساد الأمر بين بنى مروان وولاتهم ، لاحباً فى هشام وإرادة النصح له . وما نريد بعد هذا أن نمضى فى تمحيص ما تعارضت فيه تلك الروايات ، لأن ثمرة هذا التمحيص لاتوازى عناءنا فيه ، ولا تذكر بجانب الملل الذى يصير بنا إليه

وقد أخذ الكميت بعد عفو هشام عنه يمدحه ويمدح ولاته ووجوه دولته ، ويقبل فى ذلك صلاتهم وجوائزهم ، ولكن مدحه لهم فى نظير ذلك كان مدحاً تجارياً كسائر ما مدحوا به من شعراء عصره ، ولم يكن لغاية نبيلة كتلك الغاية التى مدح بها بنى هاشم فى هاشمياته

والحقيقة أنه لم يكن مخلصاً فى مدح بنى مروان مع ما كان يناله من دنياهم ، وإنما كان يأخذ فى ذلك بالتقية التى يأخذ بها الشيعة في مذهبهم جميعاً ، ولم يكن ذهابه إلى هشام بالشام إلا برضا أهل البيت وشيعتهم ليحقنوا بذلك دمه ، ويخلصوه مما كان يراد به

وإذا كان الكميت قد أجاد في مدح بنى مروان فإنما كان ذلك منه لأنه كان شاعراً فحلاً لايرضى أن يكون شعره فى ذلك

دون غيره ، فكان بذلك يقضي حق شعره عليه ، ولا يقضي حق بني مروان في عطائهم وبذلهم له ، لأنه لم يكن من أولئك الشعراء الذين يمدحون لعطاء ، كما سبق ذلك في رفضه عطاء بني هاشم على مدحه لهم . وقد قال أبو الفرج الأصبهاني : أخبرني محمد بن خلف بن وكيع ، قال حدثني أبو بكر الأموي ، قال حدثني إسماعيل بن حفص ، قال حدثنا ابن فضيل ، قال سمعت ابن شبرمة قال : قلت للكميت إنك قلت في بني هاشم فأحسنت ، وقلت في بني أمية أفضل ، قال : إني إذا قلت أحببت أن أحسن . فلم يكن الكميت إذن يمدح بني مروان عن عقيدة كما كان يمدح بني هاشم ، ولم يكن إحسانه في مدحهم إلا لأنه إذا قال أحب أن يحسن قوله لئلا يؤخذ عليه من الناحية الشعرية ؛ ولكنا نخالف ابن شبرمة فيما ذكره من أن ما قاله في مدح بني مروان أفضل مما قاله في مدح بني هاشم ، لأن أشعاره في مدح المروانيين لا تمتاز عن سائر المدائح الجوفاء في الشعر العربي ، ولا يصح أن تذكر بجانب الهاشميات التي سلك فيها الكميت ذلك المسلك الجديد في المدح ، وقام بما يجب عليه لأمته من مقاومة ذلك الحكم الظالم

وهناك بعد هذا أخبار متوافرة تدل على ما ذكرناه من رضا بني هاشم بما سلكه الكميت مع بني مروان ، وعلى أن هذا لم يقطع صلته بهم في السر والعلن ، وقد كانوا مع رضاهم بمسلكه معهم يحاسبونه إذا أسرف في مدحهم ، فلا يتركهم حتى يرضيهم بصرف هذا المدح عن ظاهره ، فكان يؤوله على نحو ما يفعل بعض الباطنية من الشيعة في تأويلاتهم

قال أبو الفرج الأصبهاني : أخبرني جعفر بن محمد بن مروان الغزالي الكوفي ، قال حدثني أبي ، قال حدثنا أرطاة بن حبيب عن فضيل الرسان عن ورد بن زيد أخي الكميت ، قال : أرسلني الكميت إلى أبي جعفر فقلت له : إن الكميت قد أرسلني إليك وقد صنع بنفسه ما صنع ، فتأذن له في مدح بني أمية ؟ قال : نعم ، هو في حل ، فليقل ما يشاء

وقال أيضاً : أخبرني محمد بن خلف بن وكيع ، قال حدثني إسحاق بن محمد بن أبان ، قال حدثني محمد بن عبد الله بن مهران ، قال حدثني ربعي بن عبد الله بن الجارود بن أبي سبرة عن أبيه قال : دخل الكميت بن زيد الأسدي على أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام فقال له : يا كميت أنت القائل :

والآن صرتُ إلى أُمَيَّـــةَ والأمورُ إلى المصيرْ

قال : نعم قد قلت ، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم ، قال : أما إن قلت ذلك إن التقية لتحل

وقال أيضاً : قال محمد بن أنس حدثني المستهل بن الكميت ، قال : قلت لأبي : يا أبت إنك هجوت الكلبي فقلت :

ألا يا سلم مِنْ تَرْبٍ أفي أسماء من تَرْبِ

وغمزت عليه فيها ففخرت ببني أمية وأنت تشهد عليها بالكفر ، فألا فخرت بعلي وبني هاشم الذين تتولاهم ، فقال : يا بني أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بني أمية وهم أعداء علي عليه السلام ، فلو ذكرت علياً لترك ذكري وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت علياً له ، ولا أجد له ناصراً من بني أمية ، ففخرت عليه ببني أمية وقلت : إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غماً وغلبة ، فكان كما قال ، أمسك الكلبي عن جوابه ، فغلب عليه وأفحم الكلبي

وإذا كان ذلك كله قد تم برضا بني هاشم وتدبيرهم لشاعرهم فلا يمكن أن يؤخذ عليه شيء فيه ، أو يقدح به في عقيدته وإخلاصه ، بل إن في ضن بني هاشم عليه بالقتل ، وإيثارهم له مواراة بني مروان على بذل دمه في سبيلهم — لدلالة كبيرة على عظم تقديرهم له ، وأنهم كانوا يثقون به إلى آخر حدود الثقة

عبد المتعال الصعيدي

عبقرية الشريف الرضي

أتشرف باخبار أدباء اللغة العربية أني شرعت في طبع كتابي « عبقرية الشريف الرضي » والاشتراك فيه أثناء الطبع مائة وخمسون فلسا وثمنه بعد الطبع مائتا فلس ، ويطلب الاشتراك من المؤلف بدار المعلمين العالية ببغداد ومن جمعية منتدى النشر بالنجف ، وتقبل الاشتراكات إلى نهاية شهر آذار سنة ١٩٣٨

زكي مبارك